المقـدمة

وقعت بنجلاديش عام ١٩٧٤م فى قبضة المجاعة، وكنت أعمل وقتها فى جامعة تقع فى أقصى الجنوب الغربى من البلاد، وهى الجامعة التى تعلمت ثم عملت بها كرئيس لقسم الاقتصاد. فى البداية لم نكن نعر اهتمامًا بالغًا بأخبار الصحف التى تتناول قصص الموت والمجاعة فى القرى البعيدة فى الشمال. ولكن بدأ أناس أقرب ما يكونون إلى الهياكل العظمية فى الظهور عند محطات القطار والحافلات فى العاصمة «دكا». وفى الحال تحول هذا الظهور إلى تدفق للجياع القادمين من كل مكان. وغالبًا ما كان يرقد هؤلاء دونما أدنى حراك حتى يدب الشك فى الناظر إليهم عما إذا كانوا ما يزالون على قيد الحياة أم لا. وقد كانوا فى المجمل متماثلين رجالاً ونساءً وأطفالاً، المسنون فيهم يشبهون الأطفال، كما أن الأطفال يشبهون العجائز.

قامت الحكومة بتوفير مطابخ فى كل مكان لتقديم «العصيدة»، ولكن جميعها عانت من النفاذ السريع للأرز. قامت الصحف بنشر الوعى وتحذير المجتمع من مغبة ومستتبعات هذه المجاعة، وقامت المؤسسات البحثية بتجميع البيانات وعمل الإحصاءات عن مصادر وأسباب الهجرة أو النزوح إلى المدن. كما قامت المنظمات الدينية بتجنيد مجموعة من الأفراد لكى يقوموا بالتقاط أجساد الموتى من الطرقات والقيام بدفنها حسب التقاليد المتبعة. ولكن سرعان ما فاقت العمليات الضرورية لتجميع أجساد الموتى قدرة هذه المجموعات وتجهيزاتها للقيام بمهمتها.

ولم يقم الجياع برفع أية شعارات، كما لم يطالبونا ـ نحن سكان المدن ممتلئى البطون ـ بأية طلبات، وجل ما كانوا يفعلونه هو استلقاؤهم بهدوء على أعتابنا فى انتظار الموت. وهناك طرق متعددة للموت، ولكن أشدها إيلامًا هو الموت جوعًا. فالموت جوعًا يحدث ببطء؛ تتناقص فيه ثانية بثانية المسافة بين الحياة والموت حتى

يصبحا متلاصقين إلى الدرجة التى يصعب عندها معرفة الفرق بينهما. والموت جوعًا مثل النوم يحدث بهدوء بحيث لا يتمكن المرء من إدراك وقوعه، فحدوثه رهن بإمكانية توفر حفنة أرز فى كل وجبة. فى مثل هذه الظروف يُسمح للطفل الصغير ـ الذى لم يستوعب بعد غموض العالم الذى يعيشه ـ أن ينخرط فى البكاء حتى يغلبه النعاس دون الحصول على رشفة لبن تقيم أوده؛ الأمر الذى يصعب معه بقاؤه على قيد الحياة فى اليوم التالى.

وقد اعتدت خلال هذه الفترة على تدريس النظريات الاقتصادية الشهيرة لطلابى فى الجامعة، تلك النظريات التى من المفترض أن تقوم بمعالجة جميع أنواع المشكلات الاجتماعية. ولكنى فى ١٩٧٤م بدأت أرهب إلقاء محاضراتى على الطلاب؛ فما جدوى النظريات الاقتصادية المعقدة التى أقوم بتدريسها فى الوقت الذى تقضى فيه المجاعة على الناس على الأرصفة والطرقات التى تجاور قاعة محاضراتى؟ أصبحت محاضراتى مثل الأفلام الأمريكية التى ينتصر فيها الخير دائمًا، ولكنى ما أن أنتهى منها أواجه الواقع المؤلم على أرصفة الشوارع التى يرتعش فوقها أناس طيبون ويموتون دون أدنى رحمة. وأصبحت الحياة اليومية تسير من سيئ إلى أسوأ، ويزداد الفقراء فقرًا.

ولم تساعدنى نظرياتى الاقتصادية التى أدرِّسها فى فهم ما يدور من حولى؛ ولم أتمكن من أن أقنع طلابى بواقعية ما أقوم بتدريسه لهم؛ ومن ثم رغبت فى الهروب بعيدًا عن الحياة الأكاديمية، . . . . وعن جميع النظريات والمراجع العلمية، سعيًا لاكتشاف النظريات الاقتصادية المتصلة بالواقع الذى يتهدد حياة الفقراء فى مجتمعنا.

وقد كنت محظوظًا لوقوع مدينة «چوبرا» بالقرب من الحرم الجامعى، ففى ١٩٥٨م تولى السلطة المارشال أيوب خان رئيس دولة باكستان حينئذ ـ نتيجة انقلاب عسكرى موفق. ولخوفه من حدوث مظاهرات طلابية، أصدر مرسومًا بإقصاء الجامعات الجديدة بعيدًا عن المناطق الحضرية، ومن ثم كان إنشاء جامعة شيتاجونج الجديدة التى أعمل بها على ربوة فى منطقة ريفية بمقاطعة شيتاجونج، مجاورة لقرية چوبرا؛ الأمر الذى ساعد على جعل هذه القرية الخيار الأمثل لاهتماماتى الدراسية الجديدة. فقررت أن أصبح تلميذًا من جديد وأن يكون سكان چوبرا بمثابة أساتذتى المعلمين، وأن أكرس نفسى للتعلم قدر استطاعتى من هذه القرية. أما الجامعات التقليدية فى ذلك الوقت فقد

قامت بخلق فجوة متسعة بين طلابها وبين ما يجرى من أحداث يومية فى بنجلاديش. وبدلاً من تلقين طلابى العلم اعتمادًا على الكتب التعليمية التقليدية، قررت أن أمد طلاب الجامعة بمعلومات تساعدهم على تفهم الحياة اليومية التى تمر على أحد الفقراء. فعندما تحمل العالم فى راحة يدك وتقوم بتحليله بمنظور أحادى، فإنك أميل لأن تكون متعاليًا فى أحكامك، حيث تضطرب الحقائق وتصبح مشوشة عند النظر إليها من بعيد؛ ومن ثم كان قرارى بدراسة ظاهرة الفقر عن كثب حتى أتفهمها بشكل أوضح.

وقد كانت لرحلاتى المتكررة إلى القرى المجاورة لحرم جامعة شيتاجونج ـ حيث أعمل ـ عظيم الأثر فى استكشاف الكثير من الحقائق التى ساعدتنى فى إنشاء بنك جرامين. فقد قام الفقراء بتعليمى علمًا جديدًا فى الاقتصاد؛ أدركت فيه المشكلات التى يواجهونها من وجهة نظرهم، كما قمت بتجريب العديد من الأشياء التى نجح بعضها وفشل بعضها الآخر. ومن الأشياء الناجحة التى جربتها كانت تقديم قروض ضئيلة جدًا إلى الفقراء ليقوموا بتشغيل أنفسهم بأنفسهم؛ فقد كانت هذه القروض بمثابة نقطة البداية للقيام بالصناعات المنزلية وغيرها من الأنشطة المولدة للدخل والتى استفادت من المهارات المتوفرة بالفعل لدى المقترضين.

لم أكن لأتخيل مطلقًا أن برنامجى للقروض المتناهية الصغر سيكون ركيزة لـ« بنك الفقراء» العالمى الذى يخدم ٢,٥ مليون فرد، كما لم أتوقع أن يتم تبنى هذه الفكرة فيما يزيد عن مائة دولة منتشرة فى خمس قارات. فقد كان هدفى بداية هو التقليل من شعورى بالذنب، ومحاولة أن أكون فردًا نافعًا لفئة من الناس تتضور جوعًا، ولكن هذه التجربة لم تقف عند هذا الحد، فقد تكررت فى حالات كثيرة لدى كل من اقترض ونجح فى مشروعه، كما لم أستطع شخصيًا التوقف عن إدارة هذا المشروع.

* * *